

التصنيف المعاصر في التفسير الموضوعي

-مآزق ومشكلات-

إعداد: د/ عبد الرحمن معاشي

مشاركة في ندوة التفسير الموضوعي - كلية أصول الدين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

مقدمة -

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وآله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين وبعد:

فإن أجلَّ علم صرفت فيه الهمم، علم الكتاب المنزَّل، إذ هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فيه الهدى والشفاء، والرحمة والبيان، والموعظة الحسنة والتبيان، ومن هنا اجتمعت كلمة علماء الأمة على العناية بتفسيره، وبيانه ودراسته، والنهل من معينه العذب النмир، ولأجل انكباهم على دراسته، تنوّعت طرائقهم في عرض علومه، واختلفت مشاريعهم في إيضاح مكنوناته، وكان القدر المعلى لعلم التفسير من ذلك كله، ولهم في تناول هذا العلم والكتابة فيه أربعة أساليب:

أولاً: التفسير التحليلي: يتولى فيه المفسرون بيان معنى الألفاظ في الآية، وبلاغة التركيب والنظم، وأسباب النزول، واختلاف المفسرين في الآية، ويذكر حكم الآية وأحكامها، وقد يزيد بتفصيل أقوال العلماء في مسألة فقهية أو نحوية أو بلاغية، ويهتم بذكر الروابط بين الآيات والمناسبات بين السور ونحو ذلك. وهذا اللون من التفسير هو أسبق أنواع التفسير وعليه تعتمد بقيتها، ويتفاوت فيه المفسرون إطناباً وإيجازاً، ويتباينون فيه من حيث المنهج، فمنهم من يهتم بالفقهيات، ومنهم من يهتم بالبلاغيات، ومنهم من يطنب في القصص وأخبار التاريخ، ومنهم من يستطرد في سرد أقوال السلف، ومنهم من يعتني بالآيات الكونية أو الصور الفنية

أو المقاطع الوعظية أو بيان الأدلة العقديّة. وبذلك يكون هذا اللون من التفسير هو الغالب على تواليف العلماء وأكثر كتب التفسير على هذا النمط.

ثانياً: التفسير الإجمالي: وهو بيان الآيات القرآنية بالتعرض لمعانيها إجمالاً مع بيان غريب الألفاظ والربط بين المعاني في الآيات متوخياً في عرضها وضعها في إطار من العبارات التي يصوغها من لفظه ليسهل فهمها وتوضح مقاصدها، وقد يضيف ما تدعو الضرورة إليه من سبب نزول أو قصة أو حديث ونحو ذلك.

وهذا اللون أشبه ما يكون بالترجمة المعنوية للقرآن الكريم، وهو الذي يستخدمه من يتحدث بالإذاعة والتلفاز لصلاحيته لعامة الناس.

ثالثاً: التفسير المقارن: وهو بيان الآيات القرآنية باستعراض ما كتبه المفسرون في الآية أو مجموعة الآيات المترابطة، والموازنة بين آرائهم، وعرض استدلالاتهم، والكرّ على القول المرجوح بالنقض وبيان وجهه، وتوجيه أدلته، وبيان الراجح وحشد الأدلة وغير ذلك.

رابعاً: التفسير الموضوعي: وهذا اللون من التفسير هو مجال بحثنا، ومدار حديثنا، ولأجله كتبت هذه الخلاصة.

بعد أن كان التفسير الترتيبي المنهج المتداول بين المفسرين ظهر التفسير الموضوعي، الذي شكل قفزة نوعية في مجال التفسير، بحيث شغل اهتمام المفسرين، الذين رأوا فيه المنهج الأرقى والطريقة المثلى في الإحاطة بالمراد القرآني، وخطوة إلى الإمام بالنسبة إلى التفسير التجزيئي؛ لذا وجدنا من الضرورة الحديث عن هذا المنهج.

وبلحاحظ كون التفسير الموضوعي منهجاً فنياً وحديثاً، حيث إن العمل به لا زال في مراحل الأولى. رغم أن جذوره قديمة ترجع إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم والقرون الأولى، فإن ما يمكن أن يعترضه من مشاكل طبيعيّ؛ بالنظر إلى أن كل الجهود المبذولة حتى الآن هي جهود للمؤسّسين والمكوّنين الأوائل له، وبالتالي فإن ما سنحدّده من آفات وسلبات ليست كل شيء؛ لأنها نتاج استقرار غير تام، ولربما مع مرور الوقت، وبروز العديد من التفاسير القائمة على هذا المنهج، يظهر المزيد من الآفات والاشتباهات.

وعليه فإن الإشكالية التي يدرسها هذا البحث تتمثل في الآتي:

هل التصنيف في التفسير الموضوعي يعاني من مشكلات ومازق؟

إذا كان الجواب كذلك، فما هي أهم هذه الإشكالات؟ وكيف السبيل إلى دفعها أو الحد منها؟

للجواب عن هذه الإشكالية التأمّت عناصر البحث في الخطة الآتية:

مقدمة:

أولاً: تعريف التفسير الموضوعي

ثانياً: مراحل التفسير الموضوعي ونشأته

ثالثاً: مشكلات التصنيف في التفسير الموضوعي وسبل حلها أو الحد منها

خاتمة:

أولاً: تعريف التفسير الموضوعي

يتألف مصطلح (التفسير الموضوعي) من جزأين ركبا تركيباً وصفيّاً فنعرف الجزأين ابتداءً ثم نعرف المصطلح المركب منهما.

1- تعريف التفسير:

أ- التفسير لغةً: من الفسر وهو كشف البيان ، قال الراغب : "هو إظهار المعنى المعقول"¹.

ب- اصطلاحاً: "علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالاته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية"².

2- تعريف الموضوع:

أ- الموضوع لغةً: من الوضع؛ وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء أكان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان، تقول العرب: ناقه واضعة: إذا رعت الحمض حول الماء ولم تبرح³.

وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي أرادته.

ب- والموضوع اصطلاحاً: المراد بالموضوع في عرف العلماء معروف، وهو إما أن يطلق على مسألة واحدة وإما على أكثر من مسألة .

¹ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ)، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط1، 1412هـ، ص636.

² التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي (المتوفى: 1398هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة، 13/1، و التفسير والتأويل في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس - الأردن، ط1، 1416هـ - 1996م، ص27.

³ القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادي (المتوفى: 817هـ)، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقشوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة، بيروت - لبنان، ط8، 1426هـ - 2005م، ص771.

والمراد بالموضوعي في اصطلاح أصحاب التفسير الموضوعي إما موضوع من خلال سورة، وإما موضوع من خلال القرآن، مثلاً: "الأخلاق من خلال سورة الحجرات"، أو "الأخلاق من خلال القرآن".

3- تعريف التفسير الموضوعي:

أما تعريف (التفسير الموضوعي) علماً على فن معين، فقد عرّف عدة تعريفات، منها:

قولهم: هو أفراد الآيات القرآنية التي تعالج موضوعاً واحداً وهدفاً واحداً، بالدراسة والتفصيل، بعد ضم بعضها إلى بعض، مهما تنوعت ألفاظها، وتعددت مواطنها - دراسة متكاملة مع مراعاة المتقدم والمتأخر منها، والاستعانة بأسباب النزول، والسنة النبوية، وأقوال السلف الصالح المتعلقة بالموضوع¹.

وقولهم: التفسير الموضوعي هو كشف الموقف النظري للقرآن الكريم، سواء في ما يخص موضوعاً من مواضعه أو مقطعاً من مقاطعه².

ولعل أجمعها وأخصرها هو قولهم: علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر.

ثانياً: مراحل التفسير الموضوعي ونشأته:

1- مراحل التفسير الموضوعي:

يقطع المفسر وفق منهج التفسير الموضوعي مراحل مختلفة، وهي باختصار³:

أ- انتخاب موضوع من مواضيع القرآن،

ب- تجميع الآيات حول هذا الموضوع

ج- تفسير الآيات وفق ترتيب خاصّ ناظر إلى زمن نزول كلّ واحدة منها أو إلى خصوصيات أخرى.

¹ التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، محمد السيد الكومي و محمد أحمد يوسف قاسم، ص07، و التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه، أحمد بن عبد الله الزهراني، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط: الأعداد 85 - 100، 22 - 25 المحرم 1410 - ذو الحجة 1413هـ، ص12.

² تقارير درس الأستاذ محمود رجي، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم، 1384.

³ المرجع نفسه.

د- استخراج الموضوع المحوري فيها.

هـ- المقايسة أو المقاربة الموضوعية بين مجموع تلك الآيات.

و- استخراج نظرية قرآنية من كل ذلك.

كل هذا يدخل ضمن ما يصطلح عليه بالمراحل التي.

• توضيح:

إنَّ دراسة لفظة من خلال القرآن ينبغي أن نميز في دراستها بين جهات مختلفة:

فإن كانت دراستها من جهة الدلالة والمعنى المراد بها في القرآن، فإنها لا تدخل في مسمى (الموضوع)، وإن كان المراد دراستها من جهة كونها موضوعاً، فإنها انتقلت من البحث الدلالي إلى البحث الموضوعي.

وإليك هذا المثال: لو كنت تبحث عن لفظة (الشر) باعتبارها مفردة قرآنية، وتتبع هذه اللفظة لتعرف معانيها في كلام الله، فأنت تبحث في جميع أماكن ورودها، وتتعرف على معناها في كل سياق، وهذا البحث الدلالي هو عين ما قام به علماء الوجوه والنظائر، وليس هذا من التفسير الموضوعي في شيء بناءً على مصطلح أصحابه، ومن ثمَّ فإنه لا علاقة لكتب الوجوه والنظائر بالتفسير الموضوعي، وليست هذه الكتب لبناءً من لبناته.

لكن لو كنت تبحث عن موضوع (الشر) في القرآن، فإنك ستتعدى لفظة الشر إلى كل ما يتعلق به ، سواءً أكانت ألفاظاً أم موضوعات، وهذا يدخل في شرط أصحاب التفسير الموضوعي، بل هو الذي ينصرف إليه الذهن إذا قيل: التفسير الموضوعي.

2- نشأة التفسير الموضوعي¹

لم يظهر هذا المصطلح عَلَمًا على علم معين إلا في القرن الرابع عشر الهجري، عندما قُرِّرت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر، إلا أن لبنات هذا اللون من التفسير كانت موجودة منذ عهد النبوة وما بعده، ويمكن إجمال مظاهر وجود هذا التفسير في الأمور التالية :

أ- تفسير القرآن بالقرآن: لا ريب أن تفسير القرآن بالقرآن هو لب التفسير الموضوعي وأعلى ثمراته. وجميع الآيات التي تناولت قضية واحدة والجمع بين دلالاتها والتنسيق بينها كان أبرز ألوان التفسير التي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يربي أصحابه عليها، فقد روى البخاري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسر مفاتيح الغيب في قوله تعالى: ((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ)) [الأنعام 59] ، فقال : مفاتيح الغيب خمسة: ((إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) [لقمان 34].

ومن هذا القبيل ما كان يلجأ إليه الصحابة -رضوان الله عليهم- من الجمع بين الآيات القرآنية التي يُظنُّ بينها تعارضٌ. وقد وضع العلماء بعده قاعدة في أصول التفسير تقتضي بأن أول ما يرجع إليه المفسر القرآن الكريم ، إذ ما أجمل في مكان قد فصل في آخر، وما أطلق في آية إلا قد قيد في أخرى، وما ورد عاماً في سورة، جاء ما يخصه في سورة أخرى، وهذا اللون من التفسير هو أعلى مراتب التفسير وأصدقها إذ لا أحد أعلم بكلام الله من الله.

ب- آيات الأحكام: قام الفقهاء بجمع آيات كل باب من أبواب الفقه على حدة، وأخذوا في دراستها واستنباط الأحكام منها، والجمع بين ما يظهر التعارض ، وذكروا ما نص عليه وما استنبط من القرآن بطريق الإشارة والدلالة الخفية، ونحو ذلك ، وكله داخل تحت مسمى التفسير الموضوعي.

¹ مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، ط4، 1426هـ-2005م، ص17، والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه، أحمد بن عبد الله الزهراني، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ع85 - 100، 22- 25 المحرم 1410هـ- ذو الحجة 1413هـ، ص13.

ج- الأشباه والنظائر: وهو اتجاه نحاه بعض العلماء في تتبع اللفظة القرآنية، ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة، مثال ذلك : كلمة (خير) وردت في القرآن على ثمانية أوجه حسبما ذكره الداغاني في كتابه (إصلاح الوجوه والنظائر)، وهي : المال : كقوله ((إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا)) [البقرة 180] ، والإيمان كقوله : ((وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)) [الأنفال 23] ، والإسلام كقوله : ((مَنْعَ لِلْخَيْرِ)) [القلم 2] ، وبمعنى أفضل كقوله : ((وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)) [المؤمنون 109] ، والعافية كقوله : ((وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [الأنعام 17] ، والأجر كقوله : ((لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ)) [الحج 36] ، والطعام كقوله : ((فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)) [القصص 24] ، وبمعنى الظفر والغنيمة والطعن في القتال كقوله : ((وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا)) [الأحزاب 25] ، وهذا كما ترى لون من التفسير الموضوعي، وهو أول وسيلة يلجأ إليها الباحثون في البحث عن موضوعات القرآن حيث يجمعون ألفاظ ذلك الموضوع من سور القرآن ثم يتعرفون على دلالة اللفظ في أماكن وروده.

د- الدراسات في علوم القرآن: اهتم العلماء بموضوعات علوم القرآن فأشبعوها، ومن بين هذه الموضوعات والدراسات، لون ينصبُّ على دراسة وجمع الآيات التي لها رابطة واحدة، كآيات النسخ والقسم والمشكل والجدل والأمثال وغير ذلك ، ومؤلفاتهم في ذلك يعز على الباحث حصرها وهي أشهر من أن تذكر.

كل هذه الأمور والحقائق تدلنا على أن التفسير الموضوعي ليس بدعاً من العلوم أفرزته عقول المتأخرين، وغفلت عن الاهتمام به أفهام الأولين. لكن بروزه لوناً من التفسير له كيانه وطريقته لم يوجد إلا في العُصُر الأخيرة - تلبية لحاجات أهلها - التي وجد فيها من المذاهب والأفكار كما وجد فيها من الآراء والموضوعات ما اضطر علماء الشريعة إلى بحثها من وجهة النظر القرآنية ليقينهم بأنه الكتاب الذي يحوي دراسة وعلاج كل موضوع يطرأ في حياة الناس ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، ((أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)) [الملك 14] .

ومن ثم كثرت الدراسات القرآنية، وأصبحت المكتبة القرآنية تستقبل كل يوم مواداً جديدة من عالم المطبوعات، ونظرة خاطفة إلى فهارس المكتبة تبيّن بكثرة ما كتب في هذا المجال، وإن كان في الحقيقة قليلاً على مادة القرآن. ولشدة عناية الكاتبين بهذا الفن من التفسير قام جمع من الباحثين بخدمة هذا اللون من التفسير بوضع فهرسة للقرآن على حسب الموضوعات منها ما هو في عداد المخطوطات ، ومنها ما طبع ككتاب المستشرق "جون لابوم" والذي عنوانه (تفصيل آيات القرآن الكريم)، وقد ترجمه إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي وترجم المستدرك الذي وضعه (إدوار مونتيه) وخرجا في كتاب واحد، وهو خطوة أولى في طريق طويل لا بد وأن تجد مستدركاً ومعقبات كعادة ما يكتب أولاً.

ثالثاً: مشكلات التصنيف في التفسير الموضوعي وسبل حلها أو الحد منها

إن الذي يتتبع مصنفات المعاصرين في التفسير عموماً وفي التفسير الموضوعي خصوصاً يجد بعض الثغرات في التصنيف، أهمها:

1- أنها لا تفي بالمطلوب ولا تسدُّ النقص الموجود في المكتبة الحديثة:

كثيرة هي البحوث في التفسير الموضوعي في الساحة العلمية لا تفي بالموضوع؛ وذلك لغياب الهدف، إذ لا يكفي في مجال التفسير الموضوعي الإقرار أن الهدف الصرف هو توضيح جميع جوانب الموضوع، أو أن المسألة علمية صرفة، أو نحوها، بل لا بد أن يكون الموضوع ضمن المبتلى به بين أطراف المجتمع المسلم، أو المجتمع البشري بشكل عام، ويكون مساهماً في هداية البشرية¹؛ لأن القرآن هو كتاب هداية، وليس مجرد كتاب نظريات علمية أو نحوها، بل المراد باستخلاص النظرية القرآنية إيجاد حلٍّ لمعضلة بشرية.

2- تكرار البحوث والقضايا المعالجة:

يشتكى الكثير من التكرار في طرح ذات القضايا والمواضيع محل البحث وهذا أمر يعيب البحث العلمي عموماً والتفسير الموضوعي بشكل خاص؛ ذلك أنّ التكرار نوع من التقليد والجمود والعكوف على أقوال السابقين دون مسحة تجديد أو إبداع؛ فقد دخلت أمتنا العربية والإسلامية في مرحلة من الجمود والتقليد،

¹ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الفنائس، الأردن، د.ط، د.ت، ص 61.

استمر فترة طويلة استغرقت تقريبا ثلاثة قرون أو يزيد، مال فيها العلماء إلى النقل عن أقوال أعلام المذهب ورجاله، فظهرت الحواشي والشروح والتعليقات، وقلَّ التجديد والابتكار، وشاعت المقولات التي تدعو إلى التواكل والاكتفاء بما قال السابقون، كمقولة أن باب الاجتهاد أغلق، ومقولة: ما ترك الأول للآخر، فانظمت أنوار العقل، وتحول العقل الإسلامي إلى حقل حامل، تابع لما قال به السابقون قانع به، بعد أن كان عقلا يتسم بالاجتهاد والابتكار¹.

ولقد لوحظ في الفترة الأخيرة تكرار المواضيع؛ فكثير من الطلبة والباحثين يعيد كتابة موضوع قد طرِق أو نُشر سابقا، والسبب هو إما تقاعسهم في التنقيب عن مواضيع جديدة وجادة، أو الاكتفاء بما هو موجود مع بعض التحوير والتغيير؛ مما جعل تلك المواضيع جافة ومملة تخلو من الجودة والإخلاص العلميين، وهذا بالحقيقة يعكس الصورة الثقافية النمطية المتدهورة للمجتمع العربي الإسلامي عموما والفئة المتخصصة على وجه الخصوص.

3- مشكلات متعلقة بالعنوان: وهي كثيرة ومختلفة، منها:

- عدم اختيار الاسم الجامع: كأن يختار المفسر عنوان الحرب والصلح في القرآن، أو ألفاظا أخرى، نحو: الحرب، القتال، الضرب، الثبات، السلام، الهزيمة، الفرار وغيرها، والمفروض اختيار العنوان الشامل لكل هذه العناوين الصغيرة، فيكون الأولى اختيار عنوان (الجهاد في سبيل الله) ليكون الموضوع المحور، وبعدها يضم إليه المشتركات اللفظية، والمعنائية، أو ما يقرب للموضوع المحور من عناوين أخرى².

- التداخل بين العناوين، وصعوبة بعض العناوين وعدم وضوحها إلا للمختص في الشريعة.

- عدم مطابقة العنوان للمضمون.

4- مشكلة قلة وجود تصانيف خارج دائرة التصانيف القديمة رغم أن العلوم الإسلامية كانت

في تطور وازدياد وتفرع، وهذا متفرع عن السبب الذي سبق الحديث عنه والذي يتعلق بالجمود والتقليد وتكرار الأفكار السابقة.

¹ تجديد الخطاب الديني، أحمد عرفات القاضي، مكتبة مدبولي،

² المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار فتح الله سعيد، كلية أصول الدين، القاهرة، 1406هـ، ص60.

5- هذا بالإضافة إلى الضعف العلمي والمنهجي الواضح لبعض الدراسات، والتركيز على أنواع من الدراسات وإغفال الأخرى¹: علماً أن المرحلة الجامعية للدارس والمدرس لها أهمية كبيرة، وخطورة بالغة، لأنها قطب رحى الدراسة النظامية، فهي تتزامن مع باكورة الشباب، واكتمال القوة والفتوة، وهي فترة ذهبية في عمر الشاب يجتمع فيها الاستعداد العقلي والفطري للتلقّي وطلب العلم والمعرفة، فتجاوزها بنجاح يُعتبر مرحلة حاسمة في مستقبل الشاب، ثم تعقبها مرحلة التأهل لتحمل المسؤوليات الاجتماعية والتربوية والتعليمية وغيرها.

وقد كانت الجامعات في بداية نشأتها تخرج طلاباً أقوياء في العلم والفهم وبناء الملكات، ثم بدأ الضعف والتدني في مستوى التحصيل العلمي، لدى طلاب الكليات الشرعية خاصة والمرحلة الجامعية بصفة عامة، ولا شك أن لهذه الظاهرة أسباباً ظاهرة عامة وأسباباً خاصة، فمن الأسباب العامة:

أ- عدم تحديد الهدف أو غموضه عند كثير من الملتحقين بالجامعات، وإذا غاب الهدف العام عن أي عمل أو مشروع، فغياب الأهداف المتفرعة عنه التي توصل إلى تحقيق الهدف العام أولى، فيدخل الطالب الجامعة، وهو لا يدري ماذا يريد أن يكون! أو لأي مستوى من المعرفة يصل خلال هذه السنوات الأربع، أو الخمس! وقد يحدد هدفاً لكنه ضعيف لا يحقق كبير فائدة.

ب- فساد النية عند البعض، فيطلب العلم لينال به عرضاً من الدنيا، أو ليشار إليه بالبنان، وتخلع عليه الألقاب المحدثه فيُحرم العلم أو بركته، وهذا في الحقيقة أخطر الأسباب؛ فإن طلب العلم الشرعي عبادة عظيمة، وكلُّ عبادة يُشترط لصحتها وحصول ثمرتها حسنُ المقصد وسلامة النية من الشوائب والدُّخولات الفاسدة. وعليه فينبغي "التخلص من كل ما يشوب نيتك في صدق الطلب؛ كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سلماً لأغراض وأعراض، من جاه، أو مال، أو تعظيم، أو سمعة، أو طلب محمّدة، أو صرف وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية، أفسدتها، وذهبت بركة العلم"².

ج- عدم اكتشاف الذات، والضعف في تحديد الرغبات، وهو خطأ يشترك فيه المربون ودور التعليم والطالب نفسه، وبعد تردد وإحجام وإقدام يلتحق بأحد التخصصات المتاحة، وقد يؤدي ذلك إلى أن يصاب

¹ بناء المكانز الموضوعية، هام سعيد، مطبوع ضمن أبحاث ندوة السنة النبوية ومنهجها، ص102.

² حلية طالب العلم (وهو مطبوع ضمن كتاب المجموعة العلمية)، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، ص1416هـ، ص142.

بالمثل من الدراسة، لأنه اختار مجالاً لا يرغبه ولا تميل إليه نفسه ولا يُحسّنه كذلك؛ إما مجاملةً لصديق أو تأثر بوالده فمشى على تخصصه، أو استشار من يثق فيه فأشار إليه، أو غير ذلك، وليس هذا ضرباً من الخيال الذي لا حقيقة له، بل هو واقعٌ مشاهد، ولذلك تجد هذا الصنف من الطلاب -وهم عدد غير قليل- بعد التخرج، يترك مجال دراسته ويعمل في مجال لا صلة له به، كأن المرحلة الجامعية أصبحت ظاهرة اجتماعية ومرحلة لا بد من تجاوزها بأي شكل كان.

د- الهزيمة النفسية والنظرة السلبية للعلوم الشرعية عند البعض، فلا يدخل كلية الشريعة مثلاً إلا إذا تأخّرت به درجته عن اللّحاق بركب الأطباء والمهندسين والاقتصاديين والإداريين.

هـ- قلة النظام والفوضى التي يعيشها كثير من الطلاب في حياته العلمية والعملية، فليست له منهجية معينة يسير عليها في ضبط وقته وتنظيمه ولا في دراسته وتحصيله، أحياناً يقرأ في كتاب في الفقه، وبعده في الحديث أو التفسير، وكذلك في حضور الدروس العلمية، من غير منهجية مرسومة أو خطة واضحة مدروسة، فيخرج بمعلومات مبتورة مشتتة لا يربطها رابط ولا ينظمها سلك ضابط.

و- التعويل على المنهج المقرر والاكتفاء به، لاسيما ما يسمى بالمذكرات التي يمنحها الأساتذة للطلاب، وهي في الحقيقة من العوائق الكبيرة، والأحرى بها أن تسمى المنسيات أو المخدّرات ففي بعضها من السّقط والأخطاء العلمية والأغلاط الإملائية وضعف الأسلوب وركاكة التّعبير وبتر الكلام والخطأ في النصوص من الآيات والأحاديث الشيء الكثير.

ومهما قيل عن إيجابيات الدراسة النظامية في الكليات الشرعية ومناهجها، -ولاشك أنّ لها إيجابيات كثيرة- إلا أن لها سلبيات وإشكالات كبيرة، من ناحية التّأصيل العلمي والتدرج في الطلب، والحرص على تحصيل المعدلات العالية، على حساب الضبط والإتقان والنية الصالحة في طلب العلم النافع للعمل الصالح، وهذا يُخشى عليه أن يناله الوعيدُ الشّدِيدُ في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (من تعلم علماً مما يُتغنى به وجهه

الله، لا يتعلمه إلا لينال به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة¹، إضافة إلى ضعف كثيرٍ من المدرسين، بل عجز بعضهم عن القيام بمهمة التدريس على الوجه المطلوب.

ي- ومن الأسباب غير المباشرة -في نظري- أنَّ هناك ضعفاً علمياً صاحب الطفرة المعلوماتية الهائلة والتقدم التقني والعلمي في شتى المجالات، ومنها مجال البحث العلمي، فسهولة الوصول إلى المعلومة أدى إلى نوع من التواكل والإهمال، وعدم المبالاة من بعض الناس، وقد تسمع أحياناً بعضهم يزهّد في شراء الكتب وقراءتها، بحجة أن الأمر أصبح سهلاً، فهو بضغطة زر يستطيع أن يصل إلى ما يريد ويحمّل من الموسوعات العلمية ما يشاء.

6- ومن مشكلات التفسير الموضوعي: عدم مواكبة التطورات العلمية المختلفة وعدم مجاراة الأحداث والوقائع المتجددة في حياة الإنسان: إذ من المعلوم أن نصوص الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة محدودة العدد والأحداث والوقائع متجددة مستمرة²، فمن المستحيل أن نجد نصاً على كل حادثة في حياة الناس، ولكن النصوص الكريمة من الكتاب والسنة قد نصت على المبادئ والقواعد العامة التي يمكن استنباط الأحكام منها، لتغطي هذه الحالات المستجدة؛ وهذا سر عظمة التشريع الإسلامي وخلوده واستمراره.

وفي المقابل فإنّ موضوعات القرآن الكريم، لا حدّ لها ولا حصر، ففيه المسائل العقائدية والعلمية، وفيه المسائل الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وآداب العشرة وأحكام الحرب والسلام وتاريخ الأنبياء وأمور الكون وغيرها، وفي كل واحدة من هذه الأمور موضوعات كثيرة بحثها القرآن، ومناقشة كل هذه المسائل تحتاج إلى وقت طويل وصدر واسع.

7- مشكلة قلة وجود المختصين في العلوم الإنسانية مع علم التفسير: ذلك أن علم التفسير عموماً بحاجة إلى مختلف التخصصات والمهارات خصوصاً العلوم الإنسانية منها، وقديماً برع السلف في علوم الآلة؛

¹ رواه أبو داود في سننه في العلم، باب في طلب العلم لغير الله، رقم (3664)، وهو صحيح. سنن أبي داود السجستاني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د.ط، د.ت، 3/ 323، و جامع الأصول في أحاديث الرسول، مجد الدين أبو السعادات الشيباني الجزري ابن الأثير، ت: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، دمشق، ط1، 1390هـ، 1970م، 4/ 543.

² البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، ت: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000م، 23/ 4.

مثل: اللغة (نحو و صرفاً و بلاغة)¹، والتاريخ²، وعلم النفس (النفس الإنسانية)³، وعلم الاجتماع، وعلم الأنساب وغيرها.

ومما يؤسف له أن بعض المفسرين والمتصدرين للتفسير الموضوعي ينكرون الاستفادة من العلوم والمناهج البشرية في التفسير، ويقتصرون على القول بأن فهم القرآن يجب أن يتم من خلال القرآن نفسه، وأن ينطلق بذهن بسيط في تفسير القرآن، ومن الواضح أن تفسيراً من هذا النوع سيكون ناقصاً، ولا يملك دعائم القوة والشمولية في احتواء المعاني⁴.

وعليه فينبغي استحضار روح العصر والواقع الفكري البشري كعنصر مهمّ في قراءة معاني الآيات؛ فالقرآن حقيقة مطلقة تتجلى لكل أهل عصر وفق قدراتهم العقلية واحتياجاتهم الفكرية. يبدأ التفسير الموضوعي من الواقع البشري ليعود إلى القرآن، لا أنه يريد أن يحلّل القرآن ما وجد في ظرف الحياة الواقعية، أو أنه يريد الاستسلام أمام ما وصل إليه العقل البشري من علوم، فيفسر الآيات والسور وفقها؛ ليعطيها الأصالة، ويحفظ لها مكانة الرمز.

يبدأ التفسير من الموضوع الخارجي وينتهي بالقرآن، ليوحد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم؛ لأن التجربة البشرية تغني التفسير بما تقدّمه من موارد، وفي نفس الوقت تبقى للقرآن القيمومة والعطاء المتجدد، يبقى ذلك المعين الذي لا ينفد⁵؛ بمعنى أنّ رسالة التفسير الموضوعي في كلّ مرحلة وفي كل عصر لا بدّ أن يستحضر المفسّر فيها التجربة البشرية، ويطرحها بين يدي القرآن الكريم، ليستنطق القرآن؛ رغبةً في إيجاد أجوبة لكلّ ما طرح من مشكلات وإشكالات.

¹ لا تكاد تنفصل اللغة بمختلف تخصصاتها عن التفسير؛ فيها يفهم كتاب الله تعالى، ولذلك تجد أكثر المفسرين لغويون.

² مثل: التأليف في تاريخ النزول وأسباب النزول، وجمع الأحاديث وأسباب ورود، وكذا الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية قبل الإسلام والمصاحبة له، وتاريخ الرسل والأنبياء وتاريخ الأديان وغيرها.

³ لقد أبدع علماءنا من السلف الصالح كالإمام الغزالي وعبد القادر الجيلاني أو الجليلي وابن القيم وغيرهم في الكشف عن أسرار النفس الإنسانية، وكانت منطلقاتهم القرآن الكريم والسنة المطهرة، والدخول إلى عالم النفس البشرية لا يكون إلا عن طريق بوابة الوحي الإلهي، والذي خلقها وأودع فيها أسرارها هو الذي أخبر عنها وتحدث عن أحوالها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

⁴ تقارير درس الأستاذ محمود رجي، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم، 1384هـ.

⁵ المدرسة القرآنية السيد محمد باقر الصدر، ص 26.

إن استحضار هذه التجارب البشرية لا يعني أنها نذ للقرآن أو في خط التساوي معه، وإنما القرآن هو المرجع، له مطلق القيمة والعطاء المستجد، وهو الطريق الوحيد للحصول على النظريات الأساسية للإسلام نحو مواضيع الحياة البشرية المختلفة¹.

كذلك نجد الشيخ جوادى الأملي يبين أن الاستفادة من المعلومات والخبرات البشرية تعمل على رشد التفسير وإنمائه، قائلاً: هناك فرق بين التحميل والتحمل، وكلما استفاد الإنسان مما تمنحه التجربة البشرية ومن كتاب الكون كلما كانت قدرته على تحمل معاني الآيات القرآنية أقوى وأكثر².

8- غياب العمل المؤسسي: من مشكلات ومعوقات التصنيف في التفسير الموضوعي غياب العمل الجماعي المؤسسي، الذي يعتمد هيئة متخصصة في مختلف المجالات، تسهم في حل المشكلات الاجتماعية والإبداع والتفوق العلميين.

لكن الناظر في أحوال المسلمين عموماً يجد بعداً عن هذا النوع من العمل والبناء، ومرئ ذلك عدم ترسخ مفهوم العمل المؤسسي الجماعي، الذي يقوم على الجهد المشترك لإخراج أعمال لا يستطيع الفرد القيام بها، وإن فعل فسيكون إنتاجه ضعيفاً³، وما نجحت الدول الكبيرة والمؤسسات العريقة، إلا لأنه توفر لديها فكر المؤسسة، فكان المهيم، وتقلص دور الفرد، حتى صار تابعا لفكر المؤسسة وليس مهيمنا عليه، وصار غياب الفرد أو حضوره لا يؤثر كثيراً في النشاط الرئيس للمنظمة.

ولم يعد اليوم مجالاً للنزاع، على أن العمل المؤسسي خير وأولى من العمل الفردي الذي لا يزال مرضاً من أمراض التخلف الحضاري في مجتمعات المسلمين، مع أنها قد توجد عناصر منتجة في المستوى الفردي أكثر مما تجدها حتى عند أولئك الذين يجيدون العمل الجماعي، وربما وجدت الكثير من الأعمال التي تصنف بأنها ناجحة، ورائها أفراد⁴.

¹ المرجع السابق، ص22.

² تفسير موضوعي، عبد الله جوادى أملي، إسرائ، قم، إيران، د.ط، د.ت، 1/ 74.

³ خواطر في الدعوة، محمد العبد، سلسلة كتاب المنتدى يصدر عن مجلة البيان الرياض: ط3، 1997م، ص138.

⁴ بين العمل المؤسسي والعمل الفردي، عبد الله المسلم، مجلة البيان: العدد (117)، جمادى الأولى (1418هـ)، سبتمبر (1997م).

ونحن بحاجة إلى تحقيق التوازن، بين الروح الفردية، والروح الجماعية، في التأليف والتصنيف، وفي تقاسم الهموم والتفكير في الحلول.

خاتمة

بعد هذا العرض المتواضع يمكن التوصل إلى مجموعة من النتائج، أهمها:

- 1- يعرف التفسير الموضوعي بأنه علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر، ولم يظهر هذا المصطلح عَلمًا على علم معين إلا في القرن الرابع عشر الهجري، عندما قُررت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر، إلا أن لبنات هذا اللون من التفسير كانت موجودة منذ عهد النبوة وما بعده.
- 2- شكل منهج التفسير الموضوعي قفزة نوعية في مجال التفسير، بحيث شغل اهتمام المفسرين، الذين رأوا فيه المنهج الأرقى والطريقة المثلى في الإحاطة بالمراد القرآني، وخطوة إلى الإمام بالنسبة إلى التفسير التجزيئي.
- 3- يسعى التفسير الموضوعي إلى كشف الموقف النظري للقرآن الكريم، سواء في ما يخص موضوعاً من مواضيعه أو مقطعاً من مقاطعه، يقطع المفسر وفق منهج التفسير الموضوعي مراحل مختلفة.
- 4- يجدر بالتنبيه أن اللفظة القرآنية إن كانت دراستها من جهة الدلالة والمعنى المراد بها في القرآن، فإنها لا تدخل في مسمى (الموضوع)، وإن كان المراد دراستها من جهة كونها موضوعاً، فإنها انتقلت من البحث الدلالي إلى البحث الموضوعي.
- 5- إن الذي يتتبع مصنفات المعاصرين في التفسير عموماً وفي التفسير الموضوعي خصوصاً يجد بعض الثغرات والمآزق في التصنيف.
- 6- إن التصنيف المعاصر بحاجة إلى إيصال فكر المختصين إلى العامة لتصبح ثقافة عامة للأمة، فإن أكثر المختصين وكلامهم لا يعرض ليصبح ثقافة عامة للأمة يبسر عليهم الإدراك، ويبسر عليهم الاتباع والافتداء من بعد الإدراك والفهم، فينبغي أن نعمل على تقريب الأفكار للأمة،

لإزالة الأمية الدينية، وأن نفسر القرآن تفسيراً ميسراً تعقله العامة حتى يتحقق العمل بالقرآن والافتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- البحر المحيظ في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، ت: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000م.
- بين العمل المؤسسي والعمل الفردي، عبد الله المسلم، مجلة البيان: العدد (117)، جمادى الأولى (1418هـ)، سبتمبر (1997م).
- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، د.ط، د.ت.
- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه، أحمد بن عبد الله الزهراني، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط: الأعداد 85 - 100، 22 - 25 المحرم 1410 - ذو الحجة 1413هـ.
- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، محمد السيد الكومي و محمد أحمد يوسف قاسم.
- التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي (المتوفى: 1398هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة، 13 / 1، و التفسير والتأويل في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس - الأردن، ط1، 1416هـ-1996م.
- تقارير درس الأستاذ محمود رجي، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم، 1384.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول، مجد الدين أبو السعادات الشيباني الجزري ابن الأثير، ت: عبد القادر الأرنبوط، مكتبة الحلواني، دمشق، ط1، 1390هـ، 1970م.
- حلية طالب العلم (وهو مطبوع ضمن كتاب المجموعة العلمية)، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1416هـ.

- خواطر في الدعوة، محمد العبد، سلسلة كتاب المنتدى يصدر عن مجلة البيان الرياض: ط3، 1997م.
- سنن أبي داود السجستاني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د.ط، د.ت.
- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادي (المتوفى: 817هـ)، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقشوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة، بيروت - لبنان، ط8، 1426هـ - 2005م.
- المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار فتح الله سعيد، كلية أصول الدين، القاهرة، 1406هـ.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ)، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط1، 1412هـ.
- تقارير درس الأستاذ محمود رجي، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم، 1384هـ.
- تفسير موضوعي، عبد الله جوادي آمل، إسراء، قم، إيران، د.ط، د.ت.
- مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، ط4، 1426هـ-2005م.
- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه، أحمد بن عبد الله الزهراني، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ع85 - 100، 22- 25 المحرم 1410هـ - ذو الحجة 1413هـ.